

ا.د.سعاد هادي حسن الطائي
دراسات في تاريخ المغول والايخانيين
دكتوراه تاريخ اسلامي
عنوان المحاضرة: الدور السياسي والاداري
لـ (سيور قوقيتيتي بيكي)
(626-650هـ) / (1228-1252م)

*اولاً" :السيرة الذاتية لـ" سيور قوقيتيتي بيكي" :

سيور قوقيتيتي بيكي هي ابنة جاكمبوا أخي اونك خان اخر ملوك قبيلة الكراييت واشهرهم ، تزوجت من تولوي خان بن جنكيزخان ت 627هـ / 1229م وقد عقد هذا الزواج نظراً للصدقة التي كانت تجمع بين جنكيز خان واونك خان ، وللروابط الروحية والابوية التي كانت تجمعهما كمنزلة الوالد وابنه ، لهذا فقد طلب جنكيز خان منه ان يزوج ابنتي اخي اونك خان جاكمبو من ولديه ، فتزوجت بيكسوتمش من جوجي خان ت 624هـ / 1226 م وسيور قوقيتيتي بيكي من تولوي خان وتزوج جنكيز خان من ابنة جاكمبو والتي كانت تدعى أبغة بيكي لقد كانت سيور قوقيتيتي بيكي اكبر زوجات تولوي خان، وكانت احبهن اليه و اعظمن واقربهن وكانت تعد اكبر خواتين المغول . وهي ام اولاده الاربعة منكو خان (649 - 658 هـ) / (1251 - 1259 م) ، وقوبيلاي خان (658 - 693 هـ) / (1259 - 1293 م) ، وهولاكو خان (654 - 663 هـ) / (1256 - 1264 م) ، واريق بوكا او- بوقا - ت 664هـ/1265م وقد اشار الهمذاني الى ان تولوي خان قد اعقب منها خمسة اولاد و بنتاً واحدة ولم يشر الهمذاني الى اسم الابن الخامس او اسم الفتاة .

لهذا كانت في مقدمة سيدات العالم ، لما انمازت به من العفة، والستر، والعصمة، والثبات وعلى احسن وجه.لهذا حظيت بمكانة كبيرة لدى اوكتاي خان (626 - 639 هـ) / (1226- 1241م) لاسيما بعد وفاة زوجها تولوي خان سنة 627هـ/ 1227م، فقد بقي ابنائه ملازمين له مع والدتهم ، فكان كثيرا " ما يعزهم ويكرمهم ، وكثيرا" ما كان يستجيب لكل ما يطلبوه منه

وقد اشار الهمذاني الى ان سيورقوقيتيتي بيكي قد طلبت يوما" من اوكتاي خان بأستدعاء أحد التجار لغرض شراء سلعة ما منه، غير انه تلكأ في تنفيذ طلبها واطهر عدم الاهتمام بهذا الموضوع ، فحزنت سيورقوقيتيتي بيكي وبكت بسبب ذلك،وعلقت على موقفه هذا قائلة": (ذلك الشخص – اي زوجها تولوي خان– الذي كان مرادي وامنيتي تُرى لمن ضحى بنفسه ، ومن اجل من ازهق روحه؟!.....). فوصل تعليقها هذا الى مسامح اوكتاي خان وقال: (ان الحق في جانب سيورقوقيتيتي بيكي). فتوجه اليها معتذرا" عن تقصيره نحوها ولبي طلبها ومن المؤكد لدينا ان اوكتاي خان لم يكن يقصد اهمال طلبها والتقصير اتجاهها وانما قد يكون السبب هو انشغاله بأمور البلاد وادارتها . لهذا اسرع بالاعتذار منها مؤكدا" حسن نيته حيالها ،ومكانتها الكبيرة لديه تقديرا" وحباً" واحتراما" لزوجها الراحل.

ونظرا" لعظمة المسؤولية التي تحملتها هذه المرأة ، وللتضحيات العظيمة التي قدمتها لزوجها وابنائها ، فلم تفكر في الزواج من اي رجل اخر بعد وفاته ، فقد اشار عليها اوكتاي خان بالزواج من ابنه كيوك خان (644 - 647هـ)/(1246-1249 م)، وبعث اليها برسالة لهذا الغرض فكان جوابها لرسول اوكتاي خان : (كيف يمكن مخالفة ما يقضي به مرسوم القآن بيد انني افكر في ان اتفرغ لتربية اولادي حتى اوصلهم الى حد الرجولة والاستقلال واسعى في تهذيبهم ، حتى لا يفارق بعضهم بعضا" ، ولا ينفر احدهم من الاخر. فلربما يترتب على اتفاهم عمل كبير)

ومما لاشك فيه ان ما كانت تتمتع به هذه المرأة من عقل راجح، جعلت مرتبة ابنائها تفوق مرتبة ابناء عمهم ، فأوصلتهم الى منصب القآنية والسلطة .وبالفعل حققت هذه المرأة اميتها ، فبفضل سياستها وصبرها وتضحيتها تربي ابنائها احسن تربية ، وتقلد جميعهم مناصب الحكم والسلطة في الامبراطورية المغولية ،ونظرا" لما بذلته من جهد كبير لتربيتهم لاسيما الصغار منهم ، فلقنتهم الوان الفضائل والاداب ،لهذا اشار ابن العبري اليها قائلا" : (فأحسن تربية الاولاد وضبط الاصحاب)، فلم تسمح لأي احد منهم بأثارة النزاع على الاطلاق ،فألقت بين قلوب زوجاتهم مع بعضهن البعض ، وقامت برعايتهن ورعاية ابنائها واحفادها،فضلا عن تكريمها واهتمامها لجميع الامراء الكبار والجنود ممن ألوا اليهم من جهة جنكيز خان وتولوي خان ، فحافظت عليهم بحسن تدبيرها وسداد رأيها

فبعد وفاة تولوي خان ولشدة تألم اوكتاي خان لفراقه ، ولانشغال باله على ابنائه ، أمر ان تفوض مصالح البلاد التي كانت خاضعة لسلطة اخيه تولوي خان فضلاً عن تدبير شؤون الجيش الى ارملته سيورقويتيتي بيكي ، وان يكن الجنود ومعظم الامراء المغول طوع امرها ، لكونها كانت زوجته الكبرى ، كانت سيورقويتيتي بيكي في غاية العقل والكفاءة والحكمة، و كانت ذا رأي حسن ، ودهاء واضح ، وذكاء، ونباهة ،لهذا نالت سيورقويتيتي بيكي استحسان اوكتاي خان ، فقد عملت على وضع انظمة لم يكن في مقدور أي امير او حاكم وضعها او العمل على تنفيذها وتطبيقها بشكل منسق .وذلك لغرض الاشراف على ابنائها وعلى احوالهم وتنظيم شؤونهم ، فضلاً عن تنظيم شؤون الجيش والرعية .لهذا كان اوكتاي خان كثيراً" ما يستشيرها في الامور العامة الصغيرة منها والكبيرة والتي تخص مصالح الدولة ، ولم يكن يحيد عما تراه صالحاً" ، فكان اذا اقدم على اتخاذ أي قرار سياسي او عسكري مثل توجيه جيشه لجهة ما يبدأ بأستشارتها اولاً وقبل أي شخص حتى لا تتحرف الامور عن مسارها الصحيح .

ولم يكن يسمح لاي احد مهما ارتفعت منزلته ومكانته على اجراء أي تغيير او تعديل في قراراتها واوامرها . ونظرا لسياستها الحكيمة ولكياستها فقد كان معظم اتباعها يتمتعون اكثر من غيرهم بالحماية والاهتمام والاحترام ، فلم يصدر عنهم أية فتنة او نزاع يخالف القوانين والانظمة القديمة منها والحديثة، وكانت تشعر بالفخر هي وابنائها عند حضور أي حفل لتتويج حاكم للمغول نظراً لحسن تصرفها وكياستها وتبصرها بعواقب الامور بعكس الامراء المغول الاخرين . وخير دليل على حكمتها وسياستها الحكيمة وقدرتها الواضحة في احتواء النزاعات قبل نشوبها هي القرارات التي اتخذتها بحسب مثل هذه الامور .

فبعد وفاة تولوي خان امر اوكتاي خان بمنح ابنه كوتان الفين من جنود سلووس ممن كانوا من جملة الجنود التابعين لتولوي خان وابنائهم ، دون ان يستشير احدا من امراء الاسرة المغولية الحاكمة ، وعندما وصلت اخبار ذلك الى معظم الامراء المغول اظهروا انزعاجهم وعدم رضاهم .

وعلقوا على ذلك امام سيورقوقيتيني بيكي وابنها منكو خان وبحضور عدد من امراء الاسرة الحاكمة قائلين : (ان هذين الالفين من جنود سلووس يؤولون الينا بموجب مرسوم جنكيز خان ، ولكن القآن سلمهم لكوتن - أي كوتان - فكيف نترك هذا الامر ، ونغير فرمان جنكيز خان؟! سوف نعرض هذا الموضوع على حضرة القآن)، غير ان سيورقوقيتيني بيكي ارادت اقناعهم بالصواب والابتعاد قدر المستطاع عن أي نزاع قائلة" لهم : (ان ما تقولونه صواب . ولكننا لا ينقصنا شئ من الاموال الموروثة والمكتسبة ، ولا ينبغي ان نتمسك بهؤلاء الجنود بحال من الاحوال . ان جنودنا بل وارواحنا كذلك ملك للقآن فيكون الحكم حكمه لكل ما يأمر به ، ونحن له مطيعون ومنقادون .) .

لقد انبهر الامراء المغول من كلام سيورقوقيتيني بيكي ، فالتزموا الصمت معبرين عن مدى اعجابهم بكلامها ،فضلا" عن انها لم تكن ترغب في اثاره أي نزاع او أي ازمة ومشكلة مع الامير كوتان بن اوكتاي خان ،والامراء المغول ، فكانت كثيراً ما تودهم وتحرص على التقرب منهم .

وكان لسيور قوقيتيتي بيكي دور مهم وبارز في مجال الادارة فعندما اقام المغول في عهد اوكتاي خان دوراً للبريد في جميع انحاء البلاد الخاضعة لسيطرتهم والتي اطلقوا عليها اسم -تاياه ماه - ، ولغرض الاشراف على تنظيم هذه الدور عينوا عدداً من الرسل بأمر عدد من الامراء المغول ، فأصدرت سيور قوقيتيتي بيكي امراً " بتعيين احد الرسل لهذا الغرض وكان يدعى الجيقة ، فسار هذا بأمرها لاداء واجباته التي كُلف بها ، وقد ذكر في عدمن المصادر التاريخية انها امرت الامير بيكة ليكون مندوباً" عنها لمساعدة والي خراسان الامير جنتيمور في ادارة البلاد.. لقد تمكنت سيور قوقيتيتي بيكي من تنظيم امور البلاد وضبط احوال الدول بكفاءة وهمة كبيرة ، وبشكل يوضح عن حسن رايها ودرايته بالامور ، لهذا لم تسمح لاي احد بخداعها . لهذا وصفت بأنه لم يكن لها نظير في ادارة شؤون البلاد والحكم، ولشهرتها بالجود و الكرم .

و حرصت سيور قوقيتيتي بيكي على الاشراف على المباني بنفسها . وابدت اهتماماً " كبيراً" بالرعية شرقاً و غرباً" ، فمنحتهم رعايتها ووفرت لهم مستلزمات الحياة المترفة .

واهتمت ايضا" بتنظيم شؤون القصر والبلاط المغولي وفي كيفية دخول وخروج الزوار منه سواء كانوا من الحاشية ام من الاقارب او حتى من الغرباء وبشكل يعجز عن تنظيمه خانات النغول واهتمت بمراقبة العمال والولاة وكبار العساكر والقادة وبمدى التزامهم باوامرها ، لهذا هابوها ولم يستطع احد منهم مخالفتها منفذين كافة اوامرها ، ومن خلال ممارسة الصلاحيات الممنوحة لهم وعلى احسن وجه وبما يحقق العدل والانصاف للرعية خوفا" وخشية" من شدة سياستها وحزمها .وقد اهتمت سيورقوقيتيني بيكي ومنذ وفاة زوجها تولوي خان بمراعاة الاقارب والعشائر واستمالة العساكر والاجانب من خلال السؤال عنهم وتقديم الهدايا والتحف اليهم ، لهذا حرص هؤلاء جميعا على طاعتها واعلنوا الولاء لها ،وكانت الوفود والرسل التي تتوافد لزيارتها تقدم وافر الاحترام والتقدير لها .